السخرية في الشعر العراقي المعاصر دراسة موازنة بين الجواهري والشبيبي

نضال واحدي
طالبه ماجستير، فرع اللغة والأدب العربي، فرع إيلام، جامعة آزاد الإسلامية ايلام، إيران
Nazelvahedi5@gmail.com
الدكتور رحيم أنصاري پور (الكاتب المسؤول)
أستاذ مساعد، فرع اللغة والأدب العربي، فرع إيلام، جامعة آزاد الإسلامية إيلام، إيران
raheemansaripour@yahoo.com

Irony in Contemporary Iraqi Poetry: A Balancing Study between Al-Jawahiry and Al-Shabibi

Nazel Vahedi
Master student, Arabic Language and Literature Branch, Ilam Branch, Islamic Azad University Ilam, Iran
Dr. Rahim Ansaripour (responsible author)
Assistant Professor, Arabic Language and Literature Branch, Elam Branch, Islamic Azad University Ilam, Iran

المخلص:-

السخرية في الادب فن يتم عن ألم دفين و يكشف عن كرب خفي يريد اللجوء اليه ليداوي المهُ بالضد و يشفي كريه بالنقيض و من هنا كان الألم الذي يشعر به الأديب أو الشاعر و عدم قدرته على إلغاء أسباب هذا الألم هو الواقع وراء هذه السخرية التي يصطنعها. غير انَّ البواعث للجوء إلى هذه الأسلوب يختلف من عصر إلى عصر حيث كانت غاية السخرية في عصر فردية و في عصر آخر جماعية و هدف الكاتب من كتابة هذه النصوص سياسية و أخرى اجتماعية أو لهُ اسباب أخرى و لهذا نقول ان السخرية لونٌ من الهجاء أو المجون أو التهكم أو الفكاهة أو النكتة اوالهزل.

انَّ كثيراً من الشعراء العراقين تبرزوا في اشعارهم إلى الوضع السائد و الحاكم على الشعب العراقي و مدى ظلم الحاكم و المحتل لبلادهم و نهجوا مناهج مختلفة لتبين ماحلَّ بوطنهم العراق و من هذه المناهج التي كان لها صدي مؤثر و فعال في نفوس العراقين هو استخدام الشعر الساخر و قد برزوالكثير من الشعراء الساخرون يتخذون من الشعر الساخر صلاحاً للدفاع عن مبادئهم و تنوير افكار شعبهم المضطهد و من هؤلاء الشعرا محمدرضا الشبيبي ومحمدمهدي الجواهري اللذان يعدان من ابرز الشعراء العراقين الذين وظفوا السخرية في معالجة الكثير من القضايا الاجتماعية الصقافية، الدينية و السياسية في مجتمعهم العراقي خاصة و قضايا الوطن العربي عامة. إنَّ الشبيبي و افكاره السياسية تجاوزت اطار العراق و شملت اطارا اوسع و اشمل و هو الاطارالعربي. اما الجواهري بسخرية لايريد الاضحاك بل التوعية لما يحدث في بلاده وكان الجواهري الصورة الحية لما يحدث في بلاده فلم يستطع السكوت والكتم على أنفاسه بل نطق نطقة الجواهرية اراد بها إن ينهض الشعب على الوضع المزدري السائد في العراق.

الكلمات المفتاحية: السخرية، الفكاهة، العراق، الجواهري، الشبيبي، التوعية، الأدب الساخر.

Abstract:-

Sarcasm in literature is an art that takes place from a buried pain and reveals a hidden anguish that one wants to resort to in order to heal his pain by the opposite and heal the unpleasant by the opposite. Hence, the pain felt by the writer or the poet and his inability to eliminate the causes of this pain is the reality behind this mockery that he fabricates. However, the motives for resorting to this method differ from one era to another, as the goal of irony in one era was individualism and in another era collective, and the writer's goal in writing these texts was political and other social, or he had other reasons, and for this we say that irony is a form of satire, promiscuity, or Sarcasm, humor, joke or joke.

Many Iraqi poets highlighted in their poems the prevailing situation and the ruler over the Iraqi people and the extent of the injustice of the ruler and the occupier of their country, and they used different approaches to show what happened to their homeland, Iraq, and among these approaches that had an effective and effective resonance in the hearts of Iraqis is the use of satirical poetry and Many satirical poets have emerged who take satirical poetry as a good to defend their principles and enlighten the ideas of their oppressed people, and among these poets are Muhammad Reda Al-Shabibi and Muhammad Mahdi Al-Jawahiri, who are considered among the most prominent Iraqi poets who employed irony in dealing with many social, cultural, religious and political issues in their Iraqi society in particular and the issues of the Arab world in general. Al-Shabibi and his political ideas went beyond the framework of Iraq and included a broader and more comprehensive framework, which is the Arab framework. As for Al-Jawahiri, sarcastically, he does not want to make people laugh, but to raise awareness of what is happening in his country, and Al-Jawahiri was the living picture of what is happening in his country.

Key words: irony, humor, Iraq, Al-Jawahiri, Al-Shabibi, awareness, satirical literature.

المقدمة:ـ

تقف السخرية على رأس الأساليب الفنية الصعبة، أذ انها تتطلب التلاعب بمقاييس الأشياء تضخيما أو تصغيراً تطويلاً أو تقزيماً، هذا التلاعب يتم ضمن معيارية فنيه هي تقديم النقد اللاذع في جو من الفكاهة و الأمتاع، غير أنَّ أسلوب السخرية يختلف من عصر إلى عصر ويتفاوت من كاتب وآخر.

إن الأدب الساخر لايعني الضحك من أجل الضحك فهذا يسمى تهريجا بينما الأدب الساخر هو كوميديا سوداء تعكس أوجاع المواطن السياسية والإجتماعيه ويقدمها بقالب ساخر يرسم البسمة على الوجه، و يضع خنجراً في القلب و يشتمل هذه الأدب على كافة انواع الإبداع الأدبي الذي يطرح موضوعاته بسخرية و الكاتب الساخر هو من يحول الألم إلى بسمه و الحزن إلى إبداع. فإن لم يكن للكاتب الساخر قضية مهموم بها و رسالة يريد لها أن تصل فإنه يصبح مهرجاً الكاتب الساخر يجعل القاريء يبكي من فرط الضحك و في الوقت نفسة يضحك من فرط الألم. هناك الكثير من الأدبا من كتب بهذا النوع من الأدب و هناك من تخصص بكتابة الروايات و المسرحيات الساخره و لقد عرف السلف من كتابنا أشكالاً عديدة للكتابة الساخرة في موروثنا الأدبي، على نحو ما نجده في كليلة و دمنة و البخلاء و المقالات و النوادر و أخبار الحمقي و المغفلين و اخبار الظرفاء و غيرها من الاشكال النثرية. إن في السخرية قديمها و حديثها قدراً كبيراً من الغمز و اللمز و الهمز من هنا كانت الفكاهة في السخريه وسيلة لاغاية في ذاتها و يدور موضوع هذه المقاله حول السخريه في الشعر العراقي المعاصر دراسة موازنة بين الشاعرين الكبيرين محمدرضا شبيبي و محمدمهدي الجواهري و تحدثت في البداية عن السخرية و الاسباب التي تجعل الشاعر أو الأديب أن يتخذ هذا الاسلوب الساخر فلكل شاعر أو كاتب طريقة لبيان الأوضاع غيرالمرضيه، رُبما تجنب من الأذي أو من حيث تلقي المستمع فهي قدتكون اكثر وقعاً في قلوب الناس و بعد ذلك دخلت في صلب الموضوع و هو القصائد الساخرة لدي الشاعريين فلل جواهري قصائد كثيرة سخر بها من العديد من كبار الفئة الحالمة إلى جمهور الناس العاديين و قد أوردنا بعض قصائده الساخره ك (طرطرا، تنويمة الجياع، ماتشاؤون. أطبق دجي، و كم ببغداد ألاعيب).

أما الشبيبي و افكاره السياسية تجاوزت إطار العراق و شملت إطاراً أوسع واشمل وهو الإطارالعربي، فقد كبر الوطن في فكره وصورته على قلمه فهو لم يعد يبكي على الفرات فرداً بل بدأ يبكي على الجزيرة العربية بأكملها و أخذ يسخر مما حل بالوطن العربي يسخر من القادة، يسخر من رجال الدين ويسخر من العادات و التقاليد وما شابه ذلك.

السخرية لغة و اصطلاحاً

فالفعل منها، سخر و اللغة الفصيحة سخر منه، و بها ورد القرآن، و قال الفراء يقال سخرت منه و لايقال سخرت به، و أجاز الأخفش كليهما و قال النووي الأفصح الأشهر سخر منه، و إنما جاء سخر به لتضمنه معنى هذي و في الكتاب العزيز (و إذا رأوا آية يستسخرون).

قال الرماني: يدعو بعضهم بعضاً إلى أن يسخر. و سخر و استسخر كعجب و تعجب و استعجب و الاسم السخرية. قال تعالى (إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون) أي إن تستجهلونا أي تحملونا على الجهل على سبيل الهزء فإنا نستجهلكم كما تستجهلوننا، و إنما فسر بالاستجهال هربا من إطلاق الإستهزاء عليه تعالى (الذبيدي ١٩٩٤ م، ج ٣:٢٠).

نستطيع القول ومن خلال الدلالة المعجمية لكلمة «سخرية» إنها القهر والتذليل وإخضاع الآخر، فهي مرادفة للشعور بالأفضيلة والنظر للآخر نظرة دونية وقد نهانا الإسلام عنها حيث وردت في عدة مواضع من القرآن الكريم تحمل الدلالة نفسها نذكر قوله تعالى ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ (هود:٣٨) فكانت بذلك مرادفة لكل معاني (الإستهزاء و الاستخفاف حيث يركّز الساخر على تبيان عيوب الآخر جسدية كانت أو نفسية أومادية. (سامية، ٢٠١١ م: ١١)

وجمع الإمام الجوهري كذلك معنى السخرية بالهزء والتذيل (الجوهري، ١٤٣٠:٥٢٥) خاصة وأنها وردتا معاً في عدة مواضع من القرآن الكريم، نذكر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (الأنعام: ١٠)

عدا ذلك فقد بقيت السخرية مرتبطة بالمحادثات اليومية تحمل المعنى نفسه، وكونها مصدراً لافعال الضحك جعلها تُصنَف ضمن أساليب الفكاهة كالهزل و الطرفة و النكتة.

فالإنسان الذي لايتوفّر في شخصه جانب الإضحاك والخفّة يوصف بالثقل والعبوس، كذلك تدّل على سعة المستوي الثقافي للساخر الذي يعتمد وسائط متعددة بعيدة الدّلالة موازنا بين العناصر اللّسانية و الوجدانية إلى حدود الالتباس. (العمري، ٢٠٠٥ م: ٩٢)

فالسخرية و أن ارتبطت دلالاتها بالهزء و التحقير إلا أن إتقانها يستدعي ذكاء و فطنة شديدين لايتوفران في اَيّ كان، لذلك تُعتبر بعداً كبيراً بين المثالية و الواقع. فلايمكن لجميع الناس أن يكونوا ساخرين، و الا فقدت جودتها و على هذا يمكننا القول إن السخرية فنّ قائم بذاته، يختصّ في تأليفه بجماعة معينة من الناس. إنّ السخرية تصدر عن نفس مرحة متفائلة بالحياة و طبيعة لاتعرف الحقد و اللؤم و مزاج يميل إلى الإعتدال، فيخلط الجدّ بالهزل و «للضحك موضع وله مقدار فالناس لم يعيبوا الضحك إلا بقدر و لم يعيبوا المزح إلا يقدر» (الجاحظ، ١٩٧٧، ج ١:٢٩) و يقول «و نحن نعوذ بالله أن نجعل المزح في الجملة كالجدّ في الجملة بل نزعم أن بعض المزاح خير من بعض الجدّ و عامة الجدّ خير من عامة المزح» (الجاحظ، ١٩٥٥ م: ٦٧).

نشأة السخرية:

يصعب علينا أن غدّد تاريخاً دقيقاً لظهور مصطلح السخرية في المجتمع الإنساني و مع ذلك يمكننا القول إنها موجودة منذ الأزل، منذ أدرك الإنسان ذاتية و تميزه عن الآخر فظهر مصطلح السخرية مع تشكل الجماعات البشرية و ظهور مصطلحات القهر السياسي و التسلط. (نعمان آغا، مجلة الفكر، ١١ يونو، ٢٠٠٧، م).

فقد كشفت الدراسات و الأبحاث الأثرية عن وجود (رسومات كاريكاتورية خلفها الإنسان القديم على جدران الأهرامات المصرية و كذا في أرجاء المعابد القديمة. تذكر من ذلك «بردية» مصرية قديمة بيد رسام ساخر مجهول عن طائر يصعد إلى شجرة، ليس بواسطة جناحيه و إنما بواسطة سلم خشبيّ» (الغرباوي، منتديات ميدوزا، ٢-٥ م)

فاستعمال الطائر للسلّم الخشبي بدلا من جناحيه في هذه الصورة مخالف لما هو متعارف عليه في الواقع ما جعله موضعاً للسخرية.

ـ الهدف من السخرية:

مثلما تتسع السخرية لاستيعاب الأخطاء التي تتعثر بها في طريقها، قد ترتفع سدا بوجه اليأس الذي تصفعنا به المفارقات الامعقولة في الحياة. فتمنحنا الشجاعة لمواجهة مصيرنا بأسلوب تهكمي، فكه، نادرا ما يكون صادقا أو من الأعماق لكنه في الأغلب قائم الملامح موجع. من هذا تتزاوج السخرية في وجهها الهازل مع الألم، فيأتي لوقعها صدي غريب، يمتزج فيه اليأس والرجاء، الدمعة بالضحكة، المأساة بالملهاة، في خلط مذهل فالسخرية رغم شكلها الهازل ذات وجه مأساوي ينطوي على فجيعة مدهشة إذاء لامعقوليات الشروالخديعة في هذا العالم (عكاري، ١٩٩١ م: ١٦).

فتنطلق السخرية حينئذ تعويضا بعيد للمثل توازنها، و ذلك عبر قهقهة عابثة ينطلق دويها في ذورة الكشف العاري للحقائق، حيث يختلط الإحساس المفجع باللاهي، وفق و تيرة ضحك مأساوي يختلف عن رنين الفرح (المصدر نفسه: ٢٧).

تسير السخرية في اتجاهين: اتجاه إيجابي بناء و اتجاه سلبي هدّام، و الهدم مرحلة حتمية في إعادة البناء و أيّا كانَ اتجاهها و شكلها فإنّ طعم القسوة هو نكهتها الخاصة، لكن هذه القسوة ليست هي نفسها في كل مجالات السخرية، إذ تتفاوت درجه حدّتها و قسوتها بحسب تقتضيه الظروف. فهي تبدأ بما يعرف بالغمز و اللمز اللذين غالبا ما يردان في إطار من اللهو و الظّرف و الضحك يبعدهما عن الإصابة المباشرة الجارحة ويلطف وقعهما في النفس. هذا الوقع الذل يستشف استشفافا و يتفاوت بين شخص وآخر بسبب ذكائه وإرهاف حسّه. ثّم تقوي السخريه شيئا فشيئاً حتى تصبح هوجاء مهشمة تنال من هدفها دون مواربة إذ لا تغفلها أجواء المدح، و عندها تسمي تهكما (المصدر نفسه: ٢٤-٢٥) إذا فالسخرية نقد أو طعن مصوغ في ثوب فكه، إنها بديل مقبول للعقاب و هجوم متعمد على شخص بهدف سلبه كل أسلحته و تعرية من كل ما يتخفي فيه و يتحصن وراءه (بطيش، ١٩٨٣ م:١٧)

- بواعث اللجوء إلى السخرية

يجعل بعض الشعراء السخرية من الآخرين و الأشياء و الظروف، سلاحاً حاداً لحصوله على حقوقه المستلبه، كما هو عند الكثير من الشعراء مثل: بشار بن برد و الحطيئة و....

يرى البعض من الأدباء السخرية طريقة مناسبة لتنبيه الظالمين و الاشرار و المتعجرفين دون أن يخاطروا بأنفسهم مباشرة.

وقد يتخذ الشاعر السخرية أسلوبا لتعويض ما يفتقده من الجمال الظاهري أو الفقر المادي أو المكانة الإجتماعية و... لهذه الأساليب تكون السخرية أكثر إفصاحاً من الأساليب الأخرى، ونجد الكلام الساخر ينافس الكتاب والإعلان والخطاب ويتفّوق عليهم جميعاً في تبيان سيئات المجتمع في مجال السياسي أو الإجتماعي أو الإقتصادي.....

قد يكون الأسلوب الساخر انتقاما لما يلتقاه الشاعر من الإهانات و المذّلات «فالسخرية تترجم حاجة روحية المجتمع يستحق الشاعر بلا مبالاته و إنكاره فيسحقه الشاعر بأن يسخر منه و يحتقره (أدونيس، ١٩٨٣ م: ٤٠)

- السخرية في شعر الجواهري

«يتمتع الجواهري بشهرة جاهرة، أمتدت إلى أرجاء الوطن العربي و هو شاعر مُكثر مجيد في أكثر شعره، و شهرته باتت حديث السامدين في منتدياتهم» (الجبوري، بلا تاريخ، ص٧). و هو في الحقيقة حلقه وصل تربط بين الشعر العربي الكلاسيكي و الشعر الكلاسيكي المعاصر، فهو في الواقع ينتمي في نهجه الشعري إلى مدرسة عريقة في الشعر العربي عرفُها العصور العربية منذ امريء القيس حتى الجواهري، وهي الكلاسيكية القائمة على التقليد في الطرح الشعري والفنون الشعرية و أساليب الكتابة. كما تقوم على متانة التركيب اللغوي الذي يصل في بعض مناحيه إلى الإغراب والتقعر واعتماد الفصاحة والبلاغة في أكمل الوجوه والطرق، في إطار من الغنائية والخواطر الحكمية التعليمية (الايوبي: ١٩٩٩ م: ٨٨). «والجواهري في شعره رجل الثورة الذي التزم قضية الشعب والوطن وانتصب مناضلاً في سبيلها، يهاجم المسؤولين في صراحة جريئة وعنيفة» (الفاخوري، ١٩٩٥م، ص٥٠٨). ثم يمزجه بألوان السخرية حتى تصبح قصيدة رنّانة تجري على ألسن الجميع و تتسع إليها وكأنها قصيدة للمتنبي قالها في هذه الايام، فيقول الجواهري:

كم ببغداد ألاعيبُ و أساطيرُ أعاجيب وأساطين إذا امتحنوا فمهازيل مناخيبُ

و«تهاويل» يُدان لها طوع ماتومي حواجيب سُرر من فوقها بَقَر في خفاها يعبق الطيب

وقد سحُت من غباغبه وغذاها الإثُم ولحوب كذب التاريخ لاعرب إنهم- لابد- تعاريب
أو فـأعراف و أنعمـه و مـروءات أكاذيـب خزيت بغداد من بلدٍ كلُ شيء فيـه مقلـوب
فلق الإصباح غريب و نعيق البوم تشبيب وبيوت الفسق عامرة وعرين الليـث منـهوب
عاثَ رجس في محارمها وتولّي رعيتها ذيـب ضلً واستخذّي له نَقد بالحُطام الدون مسحوب

(الديوان، ج ٧، ص ٢٣٧)

المعروف عن الجواهري (أنه متنبي عصره) و عندما نقرأ هذه القصيدة قد يتحقق لنا الأمر، فهي تذكرنا بقصيدتي المتنبي الشهيرتين اللتين يقول فيهما:

ومـــاذا بمصـــر مـــن المضـــحكاتِ ولكنـــه ضـــحك كالبكـــاء

والثانية داليته الشهيرة التي قد أخذ الجواهري الشكل والمفردات منها:

عيـد بأيـة حـالٍ عُـدت يـا عيـد بمـا مضـي أم بـأمرٍ فيـك تجديـد

(المعري، ١٤٠٧ هـ، ج ٤، ص ١٦٨)

فالجواهري في هذه القصيدة يصور لنا لوعته و حقده على مدينة بغداد و من يقطن فيها. فالشاعر يكثر من أعطاء الصور الكاريكاتورية للقاريء و إن كانت هذه الصور لا تحفل بالخيال و اغلبها صور حسية. من هذه الصورة، أن تنشق غباغب مملوءة بالحرام و الإثَم أو جعل التاريخ رجلاً كذاباً مخادعاً و....

فبغداد مدينةٌ، كل شي و فيها مقلوبً: الصباحُ عندها مظلمً و صوتُ البوم نغمةُ الحب و بيوت الدعارة فيها كثيرة و عامرة، و بيت الشرف منهدمة و... ورجالها مثل الرمي لعبة في أيدي الأجانب تأخذ بهم حيث تشاء... واما «الوزارات، فتطالب بجميع الأشياء، والدستور ممخرق ومتروك لا يعمل به في زاوية حتى عششت عليه وفيه العناكب والسياسة والساسة كلهم مزيفون و....

وعلى طريقة المتنبي ولكن بالسلوب عصري يسخر الجواهري برسم صورٍ كاريكاتورية مكثّفة حتى يستفد جميع ما في نفسه من احتقار و حقد لهؤلاء الذين قد جعلوا بغداد على هذه الصورة البشعة.

ومن القصائد التي تلونت بلون ساخر، قصيدة تعرف بـ (طرطرا) وهي تجدُ وتحسُ

السخرية في شكلها ومضمونها وفي كل مفردة من مفرداتها المستخدمة في القصيدة و (هي على النمط الساخر والوزن من القصيدة الدبدبية المشهورة التي قيلت في العهد العباسي ومطلعها:

أي دَبـــــدبي تدبـــــدبي أنـــا علـــى (المغـــربي)

(الجواهري، ص ٢٢١)

وقد تناول الجواهري في مقدمتها الاتجاهات الطائفية المختلفة التي يحاول الحكام بثها بين صفوف الشعب إضافة إلى روح القبلية العشائرية والنعرات القومية واستغلال كل ما يفرق أبناء الشعب حتى في أزيائهم (زاهدي، ١٩٩٩م، ص ٣٧٥) ويقول الجواهري فيها:

أي طرطرا تطرطري تقدَّمي، تأخَّري تشيعي، تسنَّني تهَّودي، تنصَّري

تكرَّدي، تعرَّبي تهاتري بالعُنصر تعمَّمي، تبرنطي تعقَّلي، تسدَّري

(شعبان، ٢٠٠٩ م، ص ٢٦٢)

الجواهري في هذه القصيدة يسخر من كلّ شيء: من الديانات و من القوميات و من العادات والتقاليد، لأنها أصبحت وسيلة في أيدي البعض مثل السياسيين ليصلوا إلى غاياتهم. و في المقطوع الثاني من قصيدته هذه سِخر من التفاخر بالآباء و الجدود، و يقول حتى و ان لم يكن لشخص آباء و جدود كرماء يستطيع أن يختلق لنفسه و يزورهم، و هذه الاشياء قد تحدث في عصر الذّرة ونحن نرجع القهقهري.

تقلّبي تقلُبَ الدهرِ بِشتيً الغير تصرَّفي كما تشائين ولا تعتذري

لَمَن؟؟! الناس؟! و هم حُثالة في سَقَر أم للقوانين و ما جاءت بغير الهذر

أم للضمير و الضمير صُنْعُ هذا البشر؟! لمن؟! اللتاريخ؟! و هو في يد المُحبِّر

مُسخَّر طَوعَ بنان الحاكم المُستّحرِ أم للمقاييس اقتضاهنَّ اختلافُ النظر

إنَ أخـــــــــــــــــاطَرطَر مـــن كـــل المقـــاييس بَـــري

أي طرطرا تطرطري وهلّلي وكَبري وطَبّ لي لكلِّ ما يخزي الفَتى وزمَّري

وسبَّحي بحمد مأفون و شكر أبتَر أعطي سمات فارغٍ شَمردَل لبُحتر

واغتصبي لضفدع بسماتِ ليثٍ قسور وشبِّهي الظلامَ «ظلماً»- بالصَّباح المُسفر

وألبسي الغبيَّ والأحمقَ ثوبَ (عبقر) إن قيل أن مجدهم مزيف فأنكري

وإن هذا المستعيرَ صولةَ الغضنفر أهون من ذبابة في مستحمٍّ قَذِر

فهي تطير حُرَّةً جَناحها لم يعر ففالطي وكابري وحوِّري وزوِّري

وسخر إلى هؤلاء الساسة لأنهم لا يبالون بشيء ولا بأحد، فالناس حثالة لا قيمة لهم فيجب أن يضحي بهم والقوانين أيضاً لا قيمة لها لأنها كلام هذر وثرثرة ويستمر بسخرية من الضمائر البشرية ومن التاريخ ومن كل المقاييس التي وضعت في المجتمع. وتواصل القصيدة طرح المتناقضات في هذا المجتمع الذي يلبس حكامه ومأجوروهم كل شيء عكس ما تقتضيه طبيعة تزويراً للواقع، واخفاء للمثالب والعيوب، وأمعاناً في استفزاز الناس، والحط من أفهامهم ووعيهم بحقائق الأمور. إن (طرطرا) وهي الفئة الحاكمة تهلل وتكبّر وتدقّ الطبول لكل اشكال المخازي التي يتصف بها رجالها.... (زاهدي، ١٩٩٩ م، ص٣٧٥)

والشاعر في النهاية يقول ساخراً بأنه لا يقصد شتم احد أو أهانته بل يريد أن يبين أن في مجتمعنا قد يزور كل شئ فيتسم بالكافور الذي يحنّط الميت أنه لا يقصد أن يقلّلَ من مكانة العنبر أو كل شئ طيب الرائحة، ولكن قد خلا الجوُّ للانتهازيين ليستغلوا الظروف و يفعلوا ما يشاؤون.

القصيدة التالية (أطبق دجي):-

تقع هذه القصيدة في ست وخمسين بيتاً، وهي من بدايتها حتى نهايتها «جلداً عنيفاً» للذات العرقية وللقوي الوطنية، بهدف استنهاضها للعمل على خلاص العراق من ربقة الطغيان، والتحكم والاحكام العرفية، والوضع الإقتصادي المزري، يقول الجواهري:

أُطبق دجي أطبق ضباب أطبق جَماماً يا سحابُ

أطبق دَمارُ على حماةِ دمارِهم، أطبق تَباب

أطبق جَزاءٌ على بُناهِ قُبورهِم أطبق عِقاب

(بيضون، ١٩٩٣ م: ٧٣)

وبعد هذه القصيدة نشر الجواهري إحدى أروع قصائده الساخرة التي تجاوزت المائة بيتاً من الشعر وهي (تنويمة الجياع) ١٩٥١م ومطلعها:

نـــامي جيـــاعَ الشـــعب نـــامي حرســـتكِ آلهـــة الطعـــام

وفي هذه القصيدة ركز الجواهري على الازمّة الاقتصادية الطاحنة و الحالة المزرية التي يعيشها الفقراء في المأكل والملبس والمسكَن ساخراً ممن حالة السكون، وداعياً من خلال اسلوبه الساخر المجموع الجائعة والمضطهدة، التي تفرش الحصى وتلتحف بالساحب لكي تفلع عن حلة الاسترخاء، التي تغريهم بها الفئات الحاكمة (زاهدي، ١٩٩٩ م: ٣٨٨).

نـــامي فـــإن لم تشـــبعي مَـــن يقظـــةٍ فمـــن المنـــام
نـــامي علـــى زُبْـــدِه الوعـــود يـــدافُ في عســـل الكـــلام
نـــامي تَـــزركِ عـــرائسُ الأحـــلام في جُـــنح الظـــلام
تتنـــوّري قـــرصَ الرغيـــفِ كـــدورةُ البـــدر التمـــام
وتـــرى زرائبـــكِ الفســـاحَ مبلطـــاتٍ بالرُّخـــام
نـــامي جيـــاع الشـــعب نـــامي النـــوم أرعـــي للـــذمام
والنـــوم أدعـــي للـــنزول علـــى الســـكينة والنظـــام
نـــامي فمـــا كـــان القصيـــ ســـدُ ســـوي خُرَيـــزٍ في نظـــام
نـــامي: اليـــك تحـــيتي وعليـــك نائمـــةً، ســـلامي
نـــامي جيـــاع الشـــعب نـــامي حرســـتك آلهـــة الطعـــام

(الجبوري، بلا تاريخ، ٥٣)

هذه أبيات من قصيدة (نامي جياع الشعب) و هي من قصائد (الجواهري) السوائر الجياد لما احتجنت من قوة سخرية و معاني جميلة و تبليت للحاكمين الذين لا يلقون بالاً. (للدهماء)

والجواهري في قصيدته استطاع أن يعطي تكرار اللفظة بعداً فنياً عميقاً، و نجح في تكراره لفعل الأمر (نامي) و قد كرر الجواهري (نامي) ستّاً و خمسين مرة مما جعلها أشبه بنغمة الحداء، و نقطة ارتكاز في الايقاع، هيأت جوّاً درامياً من النغم الموسيقي، و مجالاً لمباشرة الذي يأتي بعدها، و تلوينه و حَمَلَ هذا التكرار طابعاً ساخراً، تضمّن معنى مقلوباً بقرنية القصد و الدلالة. إذ ليس من المقبول أن يقصد الشاعر بـ (نامي) دعوة الآخرين للنوم الحقيقي... (الديوان، ج ٤: ٧٣-٨٠)

وهذا الاصرار والالحاح على التكرار قلب المعنى المعجمي للفظة، قلم تعد تعني النوم الفعلي، أو دعوة الناس للنوم و الراحة، بل أصبحت تعني التحريض و الإثارة، و صار لها مدلول جديد هو التنبه و اليقظة، و ترك الغفلة و الرقود، بل اصبحت تعني الثورة و الوثبة. كل ذلك من خلال تكراره للفظ بشكل ساخر، في هدوء، و حتى إذا كان الغرض من هذا التكرار ان يشعر الآخرين أنهم فعلاً في موقع النوم (الكبيسي، بلا تاريخ: ١٥٧-١٥٨) وهكذا يستخدم الجواهري السخرية في اشعاره ليستفز الشعب و يفتح عيونهم و يلفت انتساههم إلى الحاقة التي وصلو إليها.

أما عام ١٩٥٢ م فقد أنشد الجواهري متنبي العصر قصيدة ساخرة متميزة كان عنوانها (ما تشاؤون) و مطلعها:

مـــا تشـــاؤون فاصـــنعوا فرصـــةٌ لا تضـــيعُ

يشار إلى أنّ هذه القصيدة قد نشرت في وقت لا يفصلها سوي أيام عن أحداث انتفاضة تشرين الثاني عام ١٩٥٢م التي بدأها طلبة الكليات و المعاهد العليا لتطور إلى حركة شعبية عارمة عجزت السلطة عن قمعها فأنزلت الجيش إلى الشوارع، واعتقلت العديد من المواطنين و من بينهم الشاعر الكبير الجواهري و أيضاً ولداها فرات و فلاح. يذكر الاستاذ الدكتور زاهد محمد زهدي أن هذه القصيدة كانت بياناً ساخراً يشهر الشاعر الكبير بوجه الحكام، بعد أن أشهر بيانه الأول (تنويمة الجياع) بوجه المحكومين.

أنه يسخر من الحاكمين ليقعلوا ما يشتهون لأنَّ الحكم بأيديهم، لا معارضة فعالة يحسبون له حساب، ولا ضمير يهزّ الحاكمين فيدفعهم إلى الرحمة و العدل، و ميزانية الدولة بين أيديهم يقطعون بها ألسنة السوء. (المصدر السابق: ١٨٠)

مـــا تشـــاؤون فإصـــنعوا فرصـــةٌ لا تضـــيع
فرصـــــةٌ أن تَحَكمـــــوا تَخُطُّـــــوا و ترفعـــــوا
وتُـــدِلّوا علـــى الرّقـــابِ وتُعطلـــــوا وتمنعـــــوا

(زاهدي، ١٩٩٩ م، ٣١٠)

مـــا تشـــاؤون فاصـــنعوا كـــلُّ عـــاصٍ يطـــوّعُ

فشـــــــــبابٌ يخـــــــــيفُكم ... للمطـــــــــامير يـــــــــدفَعُ
وضـــــــــميرٌ يُهـــــــــزُّكم ... بـــــ (الكراســـــي) يزعـــــزعُ
ولســـــــــانٌ ينوشُـــــــــكم ... بالـــــــــدنانير يُقطـــــــــعُ
مـــــا تشـــــاؤون فأصـــــنعوا ... جوّعـــــــــوهم لتشـــــــبعوا
أنـــتم (الشـــمسُ) في السّـــماء ... وأزكـــــــــى وأرفـــــــــعُ
و «عقـــــابٌ» علـــى الجـــواء ... منيـــــــــــعُ وأمنـــــــــعُ
أنـــتمُ (المـــوتُ) هـــل يحـــينُ ... مـــــن المـــــوتِ مَصـــــرعُ؟
أنـــتم (الخُلـــدُ) هـــل يغـــيضُ ... مـــــن الخَلـــــدِ منبـــــعُ؟
أنـــــتم (السُـــــلُّ) يختفـــــي ... في صـــــدورٍ... و يرجـــــعُ
أنـــــتم (اللهُ) واحـــــداً ... وهـــو لا شـــكَكَ.... أربـــعُ
فرصَـــــــةُ لا تُضـــــــيعُ ... مـــــا تشـــــاؤون فأصـــــنعوا

(الديوان، ج ٤، ٣٨٤-٣٨٤)

كما نلاحظ في القصيدة المذكورة انَّ الشاعر الكبير الجواهري كان يقول كل هذا الشَعر الساخر اللاذع التهكمي و يوجهّه إلى الحكام حتى اكبرهم منزلةً و مقاماً، دون أي خوف أو رهبةً، يهزأ بطغيانهم المزيف و يشبههم من باب (العكس) بالشمس و السماء و العقاب و الموت الذي لا يصرع، و كان الكثير من أبياته يتحول إلى شعارات في الشوارع تهزُّ الجماهير الغاضبة، و مع ذلك فإن الجواهري لا يعتقل إلا لبضعة أيام، و كان يصدر الحكم بسجنه لشهرٍ أو شهرين إلّا و يكون الحكم مقترناً بوقف التنفيذ!! و في قصيدة عنوانها (شدة لندن) تناول الجواهري بأُسلوب ساخر الوضع الذي كان عليه العراق بعد أنهيار الآمال العريضة بالحرية والاستقلال الناجز، ثم بأيام ما سُمّي بالحكم الوطني بتحقيق المصالح الاجنبية التي سار عليها الشعب، وأيضاً بروز فئة من المثقفين النفعيين تُبارك الحكم الجديد بهدف مصالحها الخاصة.

اخليلـــــيّ والـــــبلاءُ كـــــثيرٌ في ... بـــــلادي، لا، وكهـــــذي، البليـــــة
أزمـــــنَ الـــــدّاءِ في العـــــراق ولـــــن ... يشـــــفيه إلا الجـــــرّاح والعمليـــــة

أفـــــتيُّ عراقنـــــا؟ فلمـــــاذا ... خـــــدعوه؟ وذاك شـــــأن الفتيـــــه
ســـحرتنا ظـــواهر الأمـــر حـــتى ... أوهمتنـــــا أن الـــــبلاد قويـــــة
نتغنّـــي و عصـــرنا مـــن نُحـــاس ... بأغـــــاني عصـــــورنا الذهبيـــــة
نخـــر الجهـــلُ أُمّـــتي نخـــرة السـوس ... فـــــأينَ المجـــــامعُ العلميـــــة
كلنـــــا في الجمـــــود والجهـــــل ... وحشـــيون لكـــن حقوقنـــا مدنيـــة

(المصدر السابق: ١٣٠-١٢٩)

يشير الدكتور زاهد محمد زهدي في كتابه الجواهري صناعة الشعر العربي في القرن العشرين: كان الجواهري يلجاء للسخرية كلما أُسقط في يديه و شاهد مطامحة تنهار وتكشفت آماله عن خلاع وتمنيات لم تجد طريقها إلى واقع الحياة. كان شأنه في القضية الوطنية الكبري التي شهد بعض أحداثها و تعرف على بعض رجالها، وكتب عن معاركها الضارية ضد الانجليزفي النجف إلا ستاراً للحكم الأجنبي والذي صار عثرة في سبيل الاستقلال الناجز:

مشـت كـلُّ جـارات العـراق طموحـةً ... ســـراعاً، وقامـــت دونـــه العبـــاتُ
ومـــن عجـــبٍ أن الـــذين تكفّلـــوا ... بأنفـــاذِ أهليـــه هـــم العثـــرات

(الديوان، ج ٤: ٣٨٢-٣٨١)

السخرية في شعر محمدرضا الشبيبي:

يعد الشبيبي من أبرز الشعراء العراقيين الذين ادركوا العصر العثماني والعصر الحديث، وعند دراسة ادبه يلزم علينا أن ندرس جوانب شخصية هذا الشاعر الفذّ السياسية والأدبية ولا يمكننا الفصل بأي حال بين الجانب الأدبي و الفكري لهذه الشخصية وبين جانبها السياسي، فقد مثّل الشبيبي واحداً من اكبر الشخصيات التي لعبت دوراً اساسياً و مؤثراً في السياسة العراقية في الفترة التي نشط فيها (العهد العثماني، عهد الاحتلال البريطاني وداغر، ١٩٨٣ م: ٦٠٨) والعهد الملكي وسنوات الأنقلاب وحتى عهد تأسيس جمهورية العراق الحديثة) (١٩٠٨- ١٦٥م)، ويظهر دوره السياسي جلياً في المناصب العديدة التي تقلدها خلال حياته اعتباراً من وزارة المعارف وحتى مجلس الأعيان ومجلس النواب ودوره في حركة المعارضة فيه في العهد الملكي حيث عرف بالجرأة والصراحة وعدم المماالاة

والمداهة على حساب مبادئه و وطنه حتى أن جرأته كانت نادرة... لا ينافق ولا يمالق ولا يداهي ولا يداجي ولا يقول إلا ما يصح في معتقده، ولا يعتقد إلا ما يصح في رأيه، على حد تعبير احمد حسن الزيات. كما كانت له إسهامات سياسية خارج العراق تمثلت في رحلاته إلى الأردن و الحجاز و يمكننا القول إن دراسة حياة الشبيبي السياسية هي في الحقيقة تسليط للضوء على مراحل هامة من تاريخ العراق السياسي.

وقد تأثر الشبيبي في افكاره الإصلاحية و السياسية، كما كان حال معظم المثقفين الثوريين في تلك المرحلة بأفكار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده و رشيد رضا التحررية الإصلاحية التي كانت تصل العراق من طريق مجلتي «العروة الوثقي والمنار» وغيرهما. كما تركت ثورة الاتحاد بين عام ١٩٠٨ م تأثيراً كبيراً على الشبيبي ولا سيما مدحت باشا الذي كان العراقيون من أشد المعجبين به بحكم احتكاكم المباشر بإصلاحاته في بلادهم، و كان أهم ما دفع الشبيبي إلى الترحيب بثورة الإتحاديين هو ما علقه من آمال كبيرة عليها بأن تؤدي إلى انعتاق العراق من مشكلاته الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية التي تفاقمت بصورة الإتحاديين (الحرية والعدالة والمساواة) أن تهز وطنياً متحمساً ومُخلصاً مثل الشبيبي ولكنَّ سرعان ما أصيب الشبيبي كأقرانه الوطنينَ بخيبة أمل كبيرة من سياسة الإتحاديين التي انصبّت في إتّجاهٍ قومي متعصب معادٍ للطموحات المشروعة للشعوب غيرالتركية في الإمبراطورية العثمانية (عمران، ٢٠٠٩ م: alanba.org) وقد عبَّر الشبيبي عن خيبث امله في قصيدته الرائعة المعنونة «في العراق» و التي نشرتها الصحف المصرية والسورية آناذاك ونحن هنا نأتي بتلك القصيدة حيث يقول فيها:

أرى مهجتي بل ماء خَدِكَ ذاباً ... معاً لُطفاً وَ هَي فيكَ عَذابا

دَعا فأجابَ الوَجدُ قلبي فما لَهُ ... دَعَاك فكانَ الصّدَ منك جَوابَا

بأيّ كتابٍ أم بأيةٍ سنّةٍ ... يبيّحونَ طُلمي سُنّةٍ وكتابا؟

فيّالك صوتاً كان طائِرُ يَمينه ... يُردِّد ورقاء فردُ غُرابا

(الشبيبي، ١٩٤٠: ٦-٥)

إذا أمضّا النظر في الأبيات الواردة أملاه فلاحظ مدى الم الشاعر وتذمّره بالنسبة إلى الوعود المعطاة من قبل الأتحاديين التّي لم تفِ تلك الزمرة السياسية فنرى الشاعر يأتي

ويشكو قلبه المخدوع بلهجة ساخرة نابغة من ألم شديد أصيب به عبر تلك الخيبة الّتي حلّت به و نراه يجعل صفة الغباوة على قلبه حين يخاطبه قائلا:

تغابيتَ يا قلبي وليسَ بنافعٍ حِذارَ الهوى يا قلبُ أن تتغابي

ضعُفتُ على بدرٍ تَوَطَّنَ كِلَّةٍ وقد كنت ضرغاماً تقيَّلُ غاباً

(المصدر السابق: ٦-٥)

و أيضاً الأسد الملك المفترس يصبح فية يصطاده اضعف الضعفاء و هذه لربما شئ من ملامح الشاعر الساخرة حيث يجعل الملك مملوكاً، و المملوك ملكاً، و نكمس الخيبة جلية واضحة عندما يذكرهم الشاعر بأقاويلهم و وعودهم المبشرة بالخير ولكن لم تكن تلك الاصوات إلا نعيق غربان تبشر بالخراب حيث يقول:

فيالكَ صوتاً كان طائرُ يُمنِهِ يُردّدُ وَرقاءُ فَرَّد غُرابا

(المصدر السابق: ٦-٥)

نعم تبدو لهجة الشبيبي في مثل قصائده هذه حزينة. باكية، ألّا أنّ المتخصصين في شعره يرون في ذلك «دفقة ألم، و زفرة ثار فيها تفاؤلية وحثَ للهم، و توحيد للجهود من أهل الغاية المنشودة التي كان المشرق العربي يسعى إلى تحقيقها آنئذٍ. (شناوه، ١٩٩٥ م: ٣٩) وهو في ذلك اراد أن يبعث الهمم في نفوس الشعب، فقد قارن حاله بماضيه أن يتحوّل ذلك إلى رد أول بوادر النقمة و الثورة» على الوضع المزري الذي استوحي افكاره عنه من صور الحياة في النجف و الكوفة و الحلة و الديوانية ومنطقة الفرات بصورة عامة، فكان في ذلك «صورة واضحة لما مدّ بالعراق من حوادث، وصفها وصفاً صادقاً، وكان سجلاً حيّاً للحياة الإجتماعية و السياسية في تلك المرحلة (عزالدين، ١٩٧٧ م: ١٢٨-١٢٧).

إنَّ الشبيبي وافكاره السياسية تجاوزت إطار العراق و شملت اطاراً أوسع وأشمل وهو الإطار العربي، فقد كبر الوطن في فكره و صورته على قلمه فهو لم يعد يبكي على الفرات فرداً بل بدا يبكي على الجزيرة العربية بأكملها. و أخذ يسخر ممّا حلّ بالوطن العربي وسيخر من القادة، ويسخر من رجال الدين و يسخر من العادات والتقاليد وماشابه ذلك.

وفي خضم كلّ ذلك يبحث الشبيبي عم الموجهين الذين ارادهم أن يكونوا مؤمنين بأفكار الإصلاح و يحز في نفسه أنّ عدد «دعاة الإصلاح» في وطنه ما كان يتعدي الآحاد من ارقامه. كما وردني قصيدته. المعنونة «درس آلام» (شناوه، ١٩٩٥ م: ٣٩) التي نشرها في صحف بيروت قبل الحرب حيث يقول فيها:

نَـــومٌ طيـــفٌ و يقظـــاتٌ مُروّعـــة ... للّهِ حالـــة، إصـــباحي و اظلامـــي
قـد كنـتُ اَحسـبُ اَنَّ المُلـكَ مـن زَمـني ... هـــذا لَيـــالُيَّ فَـــاحلولكَنَ أيـــامي
اُكلمـــا رُفعِـــت للحـــقِ الويـــة ... كـــرَّت لِتخـــذُ لَهـــا رَايـــاتُ أوهَـــام
العلـــمُ علـــمُ خرافـــاتٍ وشـــعوذَةٍ ... والـــدّينُ ديـــنُ مَنامـــاتٍ واحـــلامِ

(الشبيبي، ١٩٤٠ م:٢١)

نلاحظ في الأبيات المذكوره كيف يسخر الشاعر من العادات والتقاليد السائدة في المجتمع العربي من خرافات و تقاليد زائفة لا جدوى من وجودها ويعتقد بانّ هذه الافكار الخرافية هي سبب النّكمة التي منيت بها الشعوب العربية. فالعلم علمُ خرافات وشعوذة ويذكر بأنّهم نائمون عن التطور العلمي و قد نهضت شعوب تعبد الأصنام لتستبق من أجل الحصول على العلوم و بقيت شعوبنا موحدة متمسكة بدينها غارقة في أحلامها ويستثنى الشاعر نفسه من هذه الشعوب لإنّ الدّين لا يكون عائقاً في طريق العلم بل دائماً يحث على العلم والتعلم. وثم نراه يندّد بما فعله الرومان في الشرق فيصف تلك بفعلة أنذال حيث يقول:

أاَبنـــاء (رومـــة) مَهـــلاً اِنَّ فعلـــتكُم ... في الشَّـــرقِ فَعلـــة، أنـــذالٍ وأقـــزامِ

(الشبيبي، ١٩٤٠ م: ٢٢)

ثم يدينهم على ما كانوا يدّعون بأنهم أتوا طرابلس من أجل تنوير الأفهام والعقول فيخاطبهم قائلاً:

يـــا قـــاذِفينَ «طرابلســـا» بِنـــائرةٍ ... وطـــالبينَ لهـــا تَنـــويرَ أفهـــامِ
ألا حملـــتُم لهـــا آلاتِ معرفـــةٍ ... كمـــا حَملـــتُم لهـــا آلاتِ اِعـــدامِ
مـا خَلَـف الغـربُ فينـا مـن حضـارتهِ ... اِلا بواعـــث إرهـــاق و إرغـــام

(المصدر السابق: ٢٣)

ثم نراه في قصائد أخرى يبحث عن القائد الذي يريده أن يكون جديراً «يقود ولا يقاد مثل الزعائف» كما هم قادة الشرق الذين «لا تنتهي مخازيهم» فيشكو السماء لأنّ الرجال «ما بهم رجل» (شناوه، ١٩٩٥ م: ٣٩).

و لالقاء الضوء على ما قلناه نأتي بأبيات من أروع قصائد معنونة «دمشق و بغداد» و التي نظّمت قبل سنتين من احتلال الفرنسيين للشام فقال الشاميون لقد صحّ الان مضمون هذه القصيدة و قد دعيت في المحافل الأدبية بـ «القصيدة الباكية» .

مـــاذا بِنـــا وبـــذي الـــدّيار يُـــرادُ؟ فُقِـــدَت دِمشـــقُ وقَبلـــها بَغـــدادُ
ســـاءت وقائعهـــا ومـــا ســـرَّت بهـــا لا الهجـــــرةُ الأولى، ولا المـــــيلادُ
وَرَدَت ميـــــاهُ الرافـــــدين مُغيـــــرةٍ شُـــقرٌ مـــن القُـــبِّ البطـــون ورَادُ

(الشبيبي، ١٩٤٠ م:٣٣)

لقد سخر الشاعر من المحتلين وشبههم بالعلوج إستهانة بهم وتحقيراً لهم وكما نعلم عندما يراد السخرية من شخص فيشبهونه بالحمار وأمثال الحمار من العلوج، فهذه إحدى صور السخرية المستفادة عند الشعراء العرب ليحطوا من شأن اعدائهم ولا يسعنا الإيتان بالقصيدة كاملة سنشير إلى ما ورد من أبيات تلمح إلى السخرية والتندر وعند تفحصنا للقصيدة وجدنا الشاعر كثيراً ما يشير إلى عدم قدرة العرب للتصدي إلى هجمات اعدائهم فهو يرى العواصم العربية تغزي يوماً بعد يوم و قد تنبّا الشاعر بسقوط دمشق قبل سقوطها بسنتين كما تلاحظون وقد شاهدنا الشاعر يأتي بامجاد الأولين و فضائلهم ويذمّ الجيل الجديد ويعدّهم من الخائنين وها هي الابيات المراد ذكرها:

غُـــدت العواصـــمُ خِطـــة مغـــزوَّة لا الخَيـــلُ تعصُـــمها وَلا الأجنـــادُ
لا (آل حمـــــدان) ولا ايّـــــامُهُم فيهـــا لهاتيـــكَ الثَّغـــور سِـــدادُ

(المصدر السابق: ٣٥)

وعلى الرغم من اجلاء الدين، التابع عن إيمان المؤمن العليم وعن نشأته «نشأة دينية بحتة» فإنه كثيراً ما كان يهاجم رجال الدين عندما كان يجدهم أصبحو حجر عثرة في سبل التقدم (عزالدين، ١٩٦٧ك: ١٤٥).

أنه أراد أن يفهم القوم أنّ الدّين ليس «عادات معطلة، بل إنّه تحليل و تحريم و نراه في هذه القصيدة يتذمر من علماء السوء الذين وردت بذمهم الآثار و الزعماء المناقدين من قبل المستعمرين فيشبههم بازعائف و هذا من باب السخريه لأنّ الزعائف من الجماعة الذين لا يُعلم لهم أصل:

جـــارَت علينـــا عُصـــبة رُوحيّـــة ... شَـــقَيت بهـــم الأرواحُ والأجســـادُ

وعَظَـت شُـيوخ لـو أصـابت لَـأعوَت ... ولَنـــالَ منـــها الـــوعظُ والارشـــادُ

شَـــرَعٌ ســـواءٌ مـــن شـــيوخٍ آمنـــوا ... إيمـــانهم والجحـــدُ والالحَـــادُ

(عزالدين، ١٩٩٧ م: ١٤٥)

و في هذه الأبيات التي ذكرنا نلاحظ الشاعر كيف يسخر من بعض رجال‌الدين الذين يسميهم بالعصبه الروحية و يشبههم بالقرود التي تعتلي الأماكن المرتفعة فهؤلاء الذين يعتلون المنابر و يعظون الناس هم اُناس أشقياء لا جدوي ولا نفع من خطبهم لأنهم يدعون الناس إلى الكساد لا إلى الكمال و الدليل على ذلك واضح في ما ذكرناه من أبيات. و لقد استغل المنطفلون على الدّين هذه الخرافات و غاصوا في لجة المكائد، و ركبوا سفن الزيف و التضليل. فئة شقيت الارواح بها و بانت نقائصها و تباكت الدّين و هدفها خدع البسطاء فيشق على الشبيبي كعالم ديني ان يرى هولاء الدعاة يفسدون العقول و الضمائر، فيأخذ على عاتقه الاصلاح و يعلن صوته داعياً إلى الحذر من هذه الزّمر الدخيلة التي لا تريد بالشعب تطوراً و زهوّاً.

ويرى الشبيبي إن رجل الدّين ينبغي أن يكون مثالاً للتسامح واستيعاب آراء الآخرين لا أن يكون من عوامل إثارة التناخر والإختلاف حيث يقول في ضرورة التأخي بين افراد المجتمع البشري على اختلاف طوائفه وقومياته وافكاره:

و اَرى مـــن الإنســـان أعجـــب مـــا اُرى ... جِنســـيَّة منعتـــة أن يتواســـي!

لِـــمَ لا تُشـــبَّهُ بـــالحُقول يزيـــدُها ... لُطفـــاً تَجَمُّـــعُ وردِهـــا أجناسَـــا

يـــا ليـــت مـــن جَعَـــلَ التبـــايُنَ زينـــهٍ ... للـــوردِ قـــدَّرها تَـــزِينُ النّاســـا

(الشبيبي، ١٩٤٠ م: ٩٠)

أجل إن الدّين في نظر الشبيبي لم يكن عادات معطلة لذا فإنهُ أدان بقوة و قناعة التقاليد الباليه و الخرافات فهي التي أدّت إلى التأخر الشعب فكرياً. و انحطاطه ثقافياً و هي التي تؤثر سلباً على مسار النضال من أجل التحرر و الإنعتاق. يضع الشبيبي مع ذلك و فير ذلك. الدّين في المقام الأول بالنسبة لكل شيء أساسي في حياة المجتمع. فيرفض أن يكون غير الدّين محوراً لكل ما فيه خيره. سؤدده فالأخلاق عنده تستقيم بالدين.

وقد إمتاز الشبيبي في شعره بصدق اللهجة حتى يمكن القول إنَّ شعره مرآة لنفسه وتوجّهاتها وهو من جملة الشعراء ذوي النزعة التقدليدية. تناول في شعره قضايا وطنه الاكبر العالم العربي. فدافع عن هذه القضايا وانتصر لها وحاول أن يستنهض شعبه ضد الإستعمار والإستبداد ونظر إلى القضايا والأحداث المحيطة به نظرة وعي وتفتح بعيداً عن التعصب الدّيني والمذهبي والمقاييس الضيقة والنظرات السطحية. مستعيناً في ذلك بلغة الشعرية الصادقة التي نلحظ فيها الشيء الكثير من متانة الماضي وجزالته وإشراقة ديباجته وروعة الحاضر والتفاعل مع بيئته العراقية والعربية والاسلامية. كما يتجلّي لنا ذلك بوضوح في قوله مخاطباً المتخاذلين الذين باعوا وطنهم وارتظوا لأنفسهم الذلّة والعمالة مقابل السلطة والنفوذ والمال وبالجملة فإنّ المحتوى السياسي والإجتماعي هو الغالب على شعر الشبيبي وكان شعره بمثابة سجل دوّن فيه بدقة وأمانه وانطلاقاً من وطنيتة واخلاصه أحداث العراق وشخصياته مما يجعله في بعض الأحيان أقرب إلى التاريخ والسياسة من الأدب. وينوّد جعفر الخليلي إلى هذه الخصوص التي تميز بها شعر الشبيبي في قوله «والشبيبي من اكثر من عرفت من يربط الحوادث بأصحابها فإذا رأي شخصا ولو بعد فراق طويل استعرض فيه كل ما مدّ من حوادث ذات وإرتباط بالتاريخ أو الأدب أو السياسة. ولذلك حوي صدره العدد الكبير من الحوادث والوقائع فحفل ديوانه بما يطيب من القصص. وبما يبهر من الأدب وما يفيد من وقائع السياسة ويكشف عن المعمّيات مما يكتشف تراجم الرجال (الخليلي، ١٩٦٣م، ج٢:٦٦) كما أولى الشبيبي اهتمامه بالقضايا الإجتماعية ومنها ثورته على الأغنياء في قصدته «رفقاً بنا» التي حمل فيها على الأثرياء و جشعهم و تهالكهم على حطام الدنيا. وحذرهم من ثورة الحق عليهم. ففيها لم يرّ الشبيبي أوجهاً مثل أوجههم كوالح لم تبتسم للمني أوجهاً لا تستثيره البائسات فرادي تمرّ بها أوثني. و على الرغم من أنّه دعا الله أن يخفف من هؤلاء الناس واستهزاء منهم لأنهم لا يفهمون لمن يكنزون حطام الدنيا ويصونون

اموالهم عن دواعي الوجود و يفنونه في دواعي الفناء إلا أنّه توع ثورة الحق عليهم وعدّ نفسه ضمن الثأرين ضدهم (شناوه، ١٩٩٥ م: ٤٠) حيث يقول في هذه القصيدة التي نشرتها جديدة البيرق البيروتية قبل الحرب العالمية الأولى:

لِمـــــن خفَّـــــف اللّهُ أطمـــــاعَكُم ... لِمـــــن تكـــــنزون حُطـــــامَ الـــــدَّني؟

لـــــنقض الهُـــــدى وإمّـــــامَ الضّـــــلالِ ... وَطـــــيّ العفـــــافِ ونشـــــر الخنـــــا

ولَـــــم ارَ مثـــــل غـــــواةُ النّظـــــارِ ... ولا مثـــــل معـــــــدنهم معـــــــدِنا

(الشبيبي، ١٩٤٠م: ص ١١٠-١٠٩)

يأتي الشاعر في بداية هذه القصيدة باستفهام إنكاري من هؤلاء الذين يكنزون أموالهم و يوجه لهم نقداً ساخراً نجده من خلال ما ضمنته الأبيات من معانٌ لما نروم إليه. فهؤلاء الأثرياء يجمعون المال الحطام الدنيوي لا ثبات له. فشاعرنا يجعلهم عرضة لنقده و يذكر أنّهم هم الذين يشوّهون وجه الحياة. ثم يقول لم أرَ معدن كمعدنهم. و يقصد الشاعر ذمّ معدن هؤلاء لا مدحهم. و نجد صور السخرية كاملة في العديد من الأبيات التي ذكرناها و إدراكها يحتاج إلى شيء من الدّقة و الإمعان.

ـ الجانب الفكري في شعر الشبيبي:

الفكر سمة من سمات الشاعر المجدد و قد طبعت هذه السمة أغلب شعره فهو يرى مثلاً في الظلم أقبح صفة يتخلق بها الجائرون الظالمون. فحزّ ذلك في قلبه، و هو يراهم يعملون ما يشاءون. فيشير في إحدى قصائده المعنونه «الحبّ الطاهر» إلى ما يقومون به فيقول فيهم:

أمـــــا لأســـــيرٍ في هَـــــواكَ سَـــــراحُ ... وَهَـــــل لِلتَّبـــــاريعَ الفُـــــؤادِ بَـــــراحُ؟

يُحبـــون وَخـــذَ النحـــل وهـــيَ صـــوارمٌ ... وطعـــنُ القُـــدودِ الهيـــفِ وَهـــي رَمـــاحُ

(الشبيبي، ١٩٤٠ م:٤٠)

هكذا نرى الشبيبي كيف ينتقد سياسة العثمانيين ويسخر من الوضع اللامستقر في البلاد. فهو يحاول باشعاره هذه استنهاض الهمم والتصدّي ولظلم الطغاة والتحريض على الثورة ضد الإتحاديين فقال في ذلك:

يُسامُ العراقُ الذّلَّ وهي عزيزةٌ ... ويُخرَسُ أهلُوهُ وهُنَّ فِصاحُ

أُسُكان أجّواز العراقيينّ هل لكم ... فُزُعٌ إلى نيل العُلا وطِماحُ؟

(المصدر السابق:٤١)

ولقد بلغ من تعسف الأتراك و ظلمهم حداً بحيث إن أبناء الشعب العراقي اضحوا يفضلون من باب تفضيل السيء على الأسوء و الإضطرار إلى اللجوء إلى المرّ هرباً من الأمّر منه كما يقول المثل الشعبي- الأحتلال الإنجليزي على استبداد الأتراك و ممارساتهم القمعية و بطشهم بأحرار الأمة فضلاً عن حالة الفقر المدقع الذي عاني منه الشعب العراقي الأمرين أبان حكمهم و ذلك ضمن سيناريو ربما تكرر قبل فترة ليست بالبعيدة. حيث يقول الدكتور على الوردي في هذا الصدد:

يمكن القول أن معظم العراقيين ولا سيما أهل المدن منهم إستبقوا الاحتلال الإنجليزي عند اول دخوله بالإبتهاج و الترحيب و ذلك لشدة ما عانوه من الحكومة التركية خلال فترة الحرب من مشاق و بلايا و آلام. حدثتني أحد المسنين من تلك الأيام فقال: إننا كنا في بداية الحرب نجتمع في المسجد ندعو الله أن ينصر المسلمين على الكفار فقد كنا حينذاك تحت تأثير حركة الجهاد التي كانت في أبانها و للشبيبي ثورة على الاتراك وفي هذه الثورة شكوى وعتاب وكلام لا يخلو من تهكّم و سخرية حين يقول:

لا الجُبُن ثار فاطغانا ولا البُخُلُ ... الثائرّ الحقدُ بالأقوام والدَّخلُ

ماذا نُؤمِلُ في إدراكِ غايتنا ... من السّياسةِ؟ كلا إنّها حِيلُ

نرى الشبيبي فيما ذكرناه يهجم على الأتراك و انزل من شأنهم و استهزأ بهم و يحاول إفهامهم بأن ما قام به النجفيون كان قيام أبطال لا يعرفون الخوف، و لقد قربوا البعيد بامجادهم، باسيافهم ولكن ها هي السياسة كلها حيل مخادعة و لقد خُدع الشعب بالساسة ويستسأل الشاعر بأنه ماذا يؤملون لإدراك غاياتهم من السياسيون فهؤلاء السياسيون كثيراً ما يقومون بخداع الشعوب بألسنتهم الخلابة، فينددهم و ينتقدهم الشاعر على ما يأتون به الشعوب ويهزأ منهم بطريقة إستفهامية و يذكرهم بما قام به الشعبُ من أجلهم ثُمّ يطالبهم بعدم تجريح أكبادهم التي لم تُشفّ بعد تلك النكسات التي مني به العراقيون. ونراه في

مكان آخر من القصيدة يصرخ بنبره متألمة متهكمة. يسائلهم بأموال ذهبت هباءً و إخوان حُكم عليه بالإعدام دون إغتراف ايّ ذنبٍ سوي الدفاع عن مبادئهم فيقول:

أينَ الرهينُ بأموالٍ لنا ذَهَبت؟ ومن يَقيدُ باخوانٍ لَنا قُتلوا؟

إما شهيدٌ مُعلّي فوق مِشنقةٍ أو موثقْ بِحبال الأسر مُعتَقَلُ

(المصدر السابق: ٤٥)

هذا ما لمحناه من أوجه الإنتقاد و السخرية في قصيدة «ثورة على الاتراك» فشاعرنا دائماً ما يستنهض الشعب للقيام بوجه المُحتَلّ ولكن هذه النهضة التي يتطلع لها الشبيبي لابّد أن يُساهم أبناء شعبه فيها. إلا أنّه يرى شباباً لا يدركون معنى الإصلاح و قيمة الفكر التجديدي، و شيباً عاجزين عن فعل شيء، فيصرخ قائلاً:

شَبابٌ طائشٌ نَزِقاً وَشيبٌ ما بَهِم رَمَقُ

فَفِي آرائنا شيعُ وَفي أحزابَنا غِرقُ

قَد استشري خِلافُكُم ألا يَا قَومُ فَاتّفقوا

(المصدر السابق: ٩١)

لقد ذكر الشاعر ظاهر الجمود المخيّم على المجتمع في الابيات التي ذكرناها فهو يُعلّل لوجود هذا الجمود الشامل المسيطر على المجتمع فيدعوا الشعب إلى توحيد الكلمة و رَصّ الصفوف حتى لا يستغفلّ العدو تفرق كلمتهم و خذلان بعضهم البعض ليسيطر عليهم.

الاستنتاج:

اردت في ختام هذه المقالة الوجيزة أن أشير إلى أنّ مزاج الجواهري المتقلب و روحه المتمردة و البيئة السياسية و الاجتماعية المتحولة و المتغيرة التي عاشها الجواهري أثّرت كل التأثير في تجاربه الشعرية، و أيضاً تعدُّد الديانات و المذاهب و القوميات:

الموجودة في العراق، كل هذا الإحداث كانت متداخلة في شعره، في نفسيته، في إختياره كلماته وافكاره، لأنّه كان الصورة الحية لما يحدث في بلاده، فلم يستطع السكوت والكتم على انفاسه بل نطق نطقه جواهرية أراد بها أن ينهض الشعب على الوضع المزدري السائد في العراق، فنطق مرةً بصورة مباشرة وأخرى غير مباشرة، إنه عبري زمانه وكان صوتاً لذاته

ووطنه وأمته، سما وتدفق ليصبح صوتاً للشعر العربي في القرن العشرين دون منازع. إن ديوان الجواهري مليءٌ بتلك القصائد الساخرة و التهكمية وإذا سنحت الفرصة لباحث دراستها فانه دون شك سيخرج بنتيجة لافتة للنظر لإنّ الكثير من شعره يحتوي على نوع من السخرية و قدتصل سخرية إلى حد النكته و الافراط في الهجاء. و نحن في هذه المقالة لم نأتِ الا بالقليل من شعره الساخر. من خلال دراستنا للسخرية في شعر الشاعر محمدرضا الشبيبي توصلنا إلى أهم النتايج التالية:

١. اعتمد شاعرنا في شعره الساخر على رسم اللوحات والصور الشعرية الساخرة لإظهار العيب والنقص الذي يريد التوجيه اليه. و قد أتاح ذلك له فرصة الإطلاع على كثير من الصور المتعددة الأشكال والألوان والتقسيمات والقسمات، كما أدي ذلك إلى تنوع الصورة الشعرية الساخرة ما بين تقديرية وخيالية وهي أمّا بسيطة وأمّا مركبة.

٢. يهدف الشاعر من خلال الإتيان بالشعر الساخر في طيات ديوانه إلى غايات نبيلة واهداف سامية و مقاصد فاضلة يسعى إلى تحقيقها بشتي الطرق والوسائل.

٣. إن شعر السخرية عند شاعرنا هو ليس مجرد شعر مملوء بالشتائم وألو ان القَذف الّتي تحركها الكراهية وتقودها الأحقاد. وإنّما هو شعر له قيمة. وله أهميته في الحياة. حيث ينشد تطهيرها وتطويرها.

٤. تطرق شاعرنا إلى كثير من القضايا التي عاشها مجتمعه العراقي بصورة عامة والنجفي بصورة خاصة وهو لم يأت لا الحاكم السياسي ولا العالم الديني. تطرق إلى كل ما هو زائف يخالف الشريعة الإسلامية ويحارب كل من اضطهد الشعب العراقي محاولاً من خلال بث روح المقامة والشجاعة محاربة الاحتلال اياً كان، ومناصرة المظلومين وتنوير عقولهم وأفكارهم للحصول على حقوقهم البسيطة.

قائمة المصادر والمراجع

إن خير مانبتدىء به القرآن الكريم.

١. أدونيس (على أحمد سعيد) مقدمة للشعر العربي، دارالعودة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٣ م.

٢. الأيوبي، ياسين، في محراب الكلمة، المكتبة العمرية، بيروت، ١٩٩٩ م.

٣. بيضون، حيدر توفيق، محمد مهدي، الجواهري شاعر العراق الأكبر، دارالكتب العربيةف بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣ م.

٤. الجبوري، عبدالله، الجواهري و نقد جوهرته، عالم الكتب، بيروت، بلا تاريخ.

٥. الجواهري، محمدمهدي، الديوان، مطبعة الأديب البغدادية، بغداد، ١٩٧٤ م.

٦. الخليلي، جعفر، هكذا اعرفتم، مطبعة الزهراء، بغداد، ١٩٦٣ م..

٧. داغر، يوسف أسعد، مصادر دراسة الأدبية، الجامعة الالبنانية، بيروت، ١٩٨٣ م.

٨. زاهدي، زاهد محمد، الجواهري صناجة الشعر العربي في القرن العشرين، دار قلم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٩ م.

٩. الزبيدي، تاج العروس، دار الحياة التراث العربي، بيروت، بلا تاريخ.

١٠. شعبان، عبدالحسين، الجواهري جدل الشعر و الحياة، دارالأداب، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٩ م.

١١. شناوه، على عبد، الشبيبي في شبابه السياسي، داركوفان للنشر، ١٩٩٥م.

١٢. الشبيبي، محمدرضا، الديوان، جمعية رابطة الأدبية، قاهرة، ١٩٤٠م.

١٣. الفاخوري، حنا، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث) دارالجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م.

١٤. عزالدين، يوسف، الشعر العراقي، دارالمعارف، القاهره، ١٩٧٧م.

١٥. الغرباوي، عبدالحميد، منتديات ميدوزا، حول الأدب الساخر، دارالكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥م.

١٦. الكبيسي، عمران، لغة الشعر العراقي، المصار، وكالة المطبوعات، الكويت، بلا تاريخ.

١٧. المعري، أبوعلاء، شرح ديوان المتنبي، دار مكتبة الحياة، ج ٤، ١٤٠٧ هـ.

١٨. الوردي، على، لمحات إجتماعية من تاريخ العراق الحديث، القسم الأول، بغداد، ١٩٩٧م.

١٩. عمران، سعدي عزاي، محمدرضا الشبيبي عندما يكون السياسي شاعر، مقال منشور على شبكة النبأ العراقية، ٢٠٠٩ م.

٢٠. نعسان، آغا، مجلة الفكر، ١١ يونيو، ٢٠٠٧م.